مقدمة (بانت سعاد) بين الحقيقة والرمز

✍ **د. محجوب محمد آدم** (★)

مقدمة :

نالت قصيدة (بانت سعاد) شهرتها لأنها قيلت بين يدي رسول الله ﷺ ورضي عنها،فقدم بردته الزكية جائزة لصاحبها،لقد كانت البردة النبوية[1]جائزة لشعر قيل في لحظة حاسمة من حياة ناظمه،قاله وليس له من أمل في الحياة إلا أن يعفو عنه رسول الله ﷺ بعد أن كان قد أهدر دمه،قاله في لحظة كان قتله واجباً على كل مسلم؛ التزاماً بأمر قائد الأمة ومشرعها، لقد كان عليه لحظة إلقائه ؛ لينقذ نفسه من القتل، أن يحسن في قوله، أن ينتقي ألفاظه ومعانيه. وقد فعل، حتى إن الرسول الكريم استمع إليه، وأعجب بما سمع؛ورضي عنه، وأشار لأصحابه، كما جاء في السيرة،أن يستمعوا،وأجزل عطاءه،فمنحه بردته جائزة..وأنعم بها من جائزة ..

وقد أحب الناس ما أحبه رسولهم الكريم، وأعجبهم قول ناظمه ، كعب بن زهير في مديح رسول الله ﷺ فاعتنوا بالقصيدة وقدموها، وعدوها من أجل ما قيل في مدح رسول الله ﷺ، وتداولتها كتب التاريخ والسير، وأوردتها كتب الأدب واستشهد بها علماء اللغة والنحو، وتصدى عدد كبير من العلماء لشرحها، ومنهم من عارضها

(★) أستاذ مشارك بكلية التربية جامعة الزعيم الأزهري – والمصحح اللغوي للمجلة . .

([1]) البُرْدَة في الأصل كساء يلتحف به (لسان العرب) ، قال ابن الأثير : وهي شملة مخططة ، وقيل كساء أسود مربع فيه صغر ، **وجاء في الأحكام السلطانية** للماوردي عن أبان بن تغلب أن النبي ﷺ كان وهبها لكعب بن زهير حين امتدحه بقصيدته التي أولها بانت سعاد . انظر **صبح الأعشى** للقلقشندي ٢٩٠ .

وخمسها وشطرها .. (1)

هذا،وقد استنكر بعضهم أن يقدم الشاعر في مستهل اعتذاره نسيباً تلكأ خلاله في وصف صاحبته(سعاد)ومن ثم عرج لوصف النوق وصفاً طويلاً،ولم ينشط للمديح الصافي لرسول الله ﷺ بعد ذلك مباشرة، بل أخذ في جانب من القول وصف فيه حاله بعدما أُهدر دمه، وكان خائفاً يترقب.. وكأني بهم يتساءلون : ما بال هذا الغزل الحسي في مقدمة قصيدته، وما الذي دعاه لينتهج هذا المسلك في بناء قصيدته ؟!

أما وقد نالت القصيدة منا الحب والتقدير، فلنجتهد في إعادة قراءتها في إطار ظروف إنشائها، وحالة صاحبها حينئذٍ، ومكانة الشعر عند رسول الله ﷺ، وبيان موقف الإسلام من الشعر، واتخاذه له وسيلة من وسائل الدعوة، وسلاحاً من أسلحة الجهاد، ولننظر في أمر مقدمتها الغزلية ودلالتها على ما توحي إليه إشاراته فيها.

ولتكن هذه القراءة من خلال أربعة مباحث:

المبحث الأول: مناسبة القصيدة.

المبحث الثاني: دلالة المقدمة ورمزية سعاد.

المبحث الثالث: غرض القصيدة [بين الغزل والمديح].

المبحث الرابع: موقف النبي ﷺ من القصيدة.

(1) فقد أخرجها ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) ٥ / ١١٨، والطبراني في معجمه الكبير : ١٧٦/١٩ ، والحاكم في (المستدرك) ٥٧٨/٣ ، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة)١٥٣/٣ ، والبيهقي في (دلائل النبوة) ٢٠٧/٥ و (السنن الكبرى) ١٠/ ٢٤٣ ، وأوردها تاج الدين السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) ١٢٢/١ ، وذكرها الهيتمي في (مجمع الزوائد) ٣٩٢/٩ ، والحافظ ابن حجر في (الإصابة) ٢٩٥/٣ . ورواها أبو العباس ثعلب في مجالسه : ٣٤٠/٢ وذكرها أبو الفرج الأصبهاني في (الأغاني) ١٤٢/١٥ وابن دريد في أماليه ، وابن هشام في مغني اللبيب ، وله شرح عليها . وانظر : زكي مبارك : المدائح النبوية ، (ط . دار الكاتب العربي ١٩٦٧) ، ص ٢٦ وما بعدها .

ثم ذيلناها بخاتمة اختصرنا فيها ما انتهت إليه قراءتنا لهذه القصيدة، سائلين المولى عز وجل أن ينفعنا بما علّمنا ويتقبل منّا عملنا.

المبحث الأول

مناسبة القصيدة

لك أن تقرأ قول كعب في مديح سيد البشر :

حَتّى وَضَعْتُ يميني، لا أُنازِعُهُ ... في كَفّ ذي نَقماتٍ قِيلُهُ القِيلُ

فتعرف من قوله (حتى) أنه وصل تماماً النهاية. وصل ما كان يسعى إليه .. البداية أن أخاه (بُجَيراً) جاء إلى رسول اللهﷺ، فعرض عليه الإسلام؛ فأسلم، فبلغ ذلك كعباً. لم يحتمل كعب أن يصبأ أخوه، ويترك دين آبائه؛ فلامه. وليته سكت عند حد اللوم؛ إنه تجرأ على رسولنا الكريم؛ فهجاه وسخر منه ، قال:[1]

مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي بُجَيْرًا رِسَالَةً ... فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْت بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَا
شَرِبْتَ مَعَ الْمَأْمُونِ كَأْسًا رَوِيّةً ... فَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلّكَا
وَخَالَفْتَ أَسْبَابَ الْهُدَى وَاتّبَعْتَهُ ... عَلَى أَيّ شَيْءٍ وَيْبَ غَيْرِك دَلّكَا
عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلْفِ أُمّا وَلَا أَبًا ... عَلَيْهِ وَلَمْ تُدْرِكْ عَلَيْهِ أَخًا لَكَا
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِآسِفٍ ... وَلَا قَائِلٍ إمّا عَثَرْتَ لَعًا لَكَا

لم تكن الكلمة في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الإسلام سهلة أو بسيطة ، أو يمكن التجاوز عنها إذا تعدت الخطوط الحمراء، الكلمة كانت موازية للسلاح، لا تقل عنه أثراً

[1] سيرة ابن هشام - ٢/ ٥٠١- ٥٠٢ ... قال ابن هشام : ويروى " الْمَأْمُورُ " . وجاءت هذه الأبيات بروايات مختلفة في المصادر المتعددة التي ترويها .

ومفعولاً ..

وقد نقل عن فقهاء الأمة الاتفاق على أن من سب النبي ﷺ صريحاً وجب قتله..[1] قال القاضي عياض [2] : ((اعلم ـ وفقنا الله و إياك ـ أن جميع من سب النبي ﷺ ، أو عابه، أو ألحق به نقصاً في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله، أو عرَّض به، أو شبَّهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه أو التصغير لشأنه أو الغضَّ منه و العيب له؛ فهو سابٌّ له، و الحكم فيه حكم الساب يقتل)). ويقول عن سب النبي ﷺ الموجب للقتل انه لا فرق بين أن يكون تصريحاً أو تلويحا . ثم يضيف : ((وكذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام و هجر و منكر من القول و زور أو عيَّره بشيء مما جرى من البلاء و المحنة عليه أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائزة و المعهودة لديه)).

ويوم دخل رسولنا الكريم مكة ظافراً، وأمكنه الله من رقاب قريش عنوة، قال لهم:((ما ترون أني فاعل بكم؟" قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء))[3].. وبهذه الكلمة صدر العفو العام عن أهل مكة جميعًا، إلا تسعة نفر، بعضهم شعراء، كان قد أهدر دمهم، وأمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة.[4]

([1]) انظر في رسالة في مقام النبي ﷺ والتعريف به وبحقوقه ما أورده العلامة عبد الله الزبير من أدلة على إجماع الأمة على قتل ساب النبي وشاتمه ومؤذيه ، ، مطبعة السودان للعملة ، الخرطوم ، ٢٠٠٦م ، ص: ٦١ وما بعدها .

([2]) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي أبو الفضل عياض : ٢/ ٢٤٢.

([3]) السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١١٨ ، باب فتح مكة ، ح رقم ١٨٧٣٩.

([4]) أحدهم الحويرث بن نفيل، كان يؤذي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ويهجوه ، فلقيه علي بن أبي طالب فقتله ..

.. فإن تجرأ كعب بن زهير بهجاء رسول الله ﷺ فإن ذلك: كبيرة. وأن يتفوه بغير ما يليق أن ينسب لرسول الله: كبيرة . وأن يتعدى حدوده ولم يحفظ مقام رسول الله: كبيرة. وإن أنسب عقوبة لمثل جرمه أن يقتل، إن إساءة من اجتباه ربه بأي شكل من أشكال الإساءة، حتى يومنا هذا؛ لكبيرة. فليلزم كلٌّ حده ليعرف كلٌّ مقامه، فإن مقام النبي ﷺ كبير، وشأنه عظيم..

ولا يحتاج أحد أن تُبين له كيف كان حب أصحاب رسول الله ﷺ له؛ كانوا يحبونه أكثر من حبهم لأنفسهم.

و إنّ مما لا اختلاف فيه بين المسلمين عامة أن محبة رسول الله ﷺ من الإيمان، وتوقيره من الدين، ومن لا يحب رسول الله ﷺ ولا يقدمه على نفسه وأهله، ولا يوقره، فليس بمؤمن..

واسمع ما رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « فوَ الذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ »[1] ، وفيه أيضاً عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[2]. قال له عمر ﷺ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ، لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلا نفسي، فَقَالَ عليه السَّلام: « لا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نفسي، فَقَالَ عليه السَّلام: « الآنَ يَا عُمَرُ ».[3] لقد أكد الحديث أن الرسول أولى لكل مؤمن من نفسه، وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى:

(1) أخرجه البخاري ، باب حب الرسول ﷺ . والنسائي.

(2) أخرجه البخاري ، باب حب الرسول ﷺ ، وأخرجه مسلم في الإيمان باب وجوب محبة رسول الله ﷺ .

(3) أخرجه البخاري ، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ ، وأخرجه أحمد .

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾[1]، وقضى ربنا تعالى أن طاعة رسوله من طاعته، وأن تنفيذ ما يأمر به عبادةٌ تقرِّب من يقوم به إلى الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينًا ﴾[2]. وقد قضى رسوله الكريم أن يقتل كعب.

حال كعب بعد إهدار دمه :

لما تعدى كعب حدود الأدب في حق رسول الله ﷺ صدر الأمر النبوي الحاسم بإهدار دمه (يعني: أباح قتله، وأسقط القصاص فيه والدِّيَّة). جاء في المستدرك [3] أن هجاء كعب لما بلغ رسول الله ﷺ غضِب وأهدر دمه، فقال: ((من لقي كعبًا فليَقْتُلْهُ)).. إن هذا هو حكم الله ورسوله، ذلك أنه آذى رسول الله ﷺ بما قال فيه، إنه بذلك أعلن حربه على الله ورسوله، لقد أعلنه شعراً، وكان الشعر آنذاك من أهمّ وسائل الصراع، وأشدها أثراً في نفوس العرب .

لو كلف أحداً بقتله لكان كبيراً، لكنه كلف كل الناس. كل من يستطيع أن يقتله فليقتله، ولن يحاسبه أحد، أو يطالب بدمه أحد، بل أصبح لأمر قتله دافع أقوى: إن قتله أصبح بعد الأمر النبوي الشريف قربى، يتقرب بها المؤمنون إلى الله تعالى لالتزامهم بأمر نبيهم في قتل كعب..

وتتفاقم مشكلة كعب، لأن أحداً كائناً من كان لا يستطيع أن يجيره، لا يقدر أن

(1) سورة الأحزاب الآية:٦.

(2) سورة الأحزاب الآية: ٣٦.

(3) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣/ ٦٧٠ ، وانظر الآحاد والمثاني ٤/ ٥٣٤

يحميه، لا أحد يستطيع أن يرد على رسول الله ﷺ أمره..

هنا بدأت معاناة كعب. هنا كانت البداية لما أوقع نفسه فيه، إنه يعيش الآن خوفاً قاتلاً، إنه أصبح يخاف من كل شخص. المشكلة أن كل أصدقائه رفعوا أيديهم عنه، أخِلَّاؤه الذين كانوا يتقربون إليه، ويتحلقون حوله بالأمس، بدأوا يتهربون عنه، كل من كان يأمل أن يقف إلى جانبه في محنته يواجهه في قسوة مُرَّة: لا ألهينك إني عنك مشغول. يعني لن نعطلك في مسعاك في طلب الشفاعة. كل منهم يقول له: لست صاحبك، إن مشكلتك لا أمل في حلها. لم يقتصروا على هذا الموقف، بل أرجفوا به؛ فقالوا: هو مقتول[1]..

لقد بدأت فرائصه ترتعد ، واسودت الدنيا في عينيه، وضاقت عليه بما رحبت. إن هذا معناه أنه لا يستطيع أن يأمن حتى لأصدقائه. لقد كان لزاماً عليه أن يختفي عن أعين الناس. وليس عليه في هذه الحالة إلا أن يستتر بظلام الليل..

ليس هذا الوصف العجيب لحالته من كلامنا، أو أنا تخيلنا ما يمكن أن يكون عليه حاله في تلك اللحظات.. لا إنه كلامه:

وقالَ كلّ خليلٍ كُنْتُ آمُلُـه: لا ألهينّكَ، إنّي عنكَ مَشْغُولُ

ولك أن تسمع تصوير ما بلغ به من الخوف :

لَـقَدْ أَقُـومُ مَقَامـاً لَـوْ يَقُـومُ بِـهِ، أَرَى وَأَسْمَعُ ما لَوْ يَسْمَعُ الفِـيلُ

لَظَلّ يُرْعَدُ، إلاّ أنْ يَكُـونَ لَـهُ مِـنَ الـنّبيّ، بـإذنِ اللّـهِ، تَنْويـل جُـنحَ

مازِلـتُ أَقتَطِـعُ البَيـداءَ مُـدَّرِعاً الظَـلامِ وَثَوبُ اللَيلِ مَسبـولُ

(1) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣ / ٦٧٤ ، وفي نهاية الأرب في فنون الأدب – ٤ / ٣٧٩ .

لقد كان ما واجهه من أسباب الخوف جديراً بأن يرتعد له فيل ضخم إن واجهه، أو أصابه ما أصابه، وهو الذي جعله يخرج إلى البيداء خائفاً يترقب، لا ينجيه من الناس إلا اختفاؤه عنهم، وما تستر به من ظلمة الليل. أما الحل فلم يكن هيناً؛ كان لابد أن يتخلى عن أصدقائه ويواجه مصيره بنفسه:

فقلتُ: خَلّوا سَبيلي، لا أبا لَكُمُ، فكلّ ما قدّرَ الرّحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أُنثى و إن طالتْ سَلامَتُه يَوْماً على آلةٍ حَدْباءَ مَحمولُ

عندما تغلق أبواب الأهل والأصدقاء جميعاً في وجهه، ويضطر إلى التخلي عنهم مكرهاً، يكتشف أخيراً أنه لا منجى له، ولا ملجأ له إلا عند الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، الذي وصفه ربه بأنه: ((حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)) [1]، ولكن الطريق إليه صعب ووعر، ويلزمه أن يجازف للحاق به مهما كلفه الأمر :

أَمْسَتْ (سُعادُ) بِأرضٍ لا يُبَلِّغُها إلاّ العِتاقُ، النّجيباتُ، المراسِيلُ

وكان ما كان ..

إسلام كعب والعفو عنه :

قبل أن ينفلت الناس من صلاة الصبح ، يفاجأون بأعرابي، لا يكاد يرى وجهه أحد ؛ لقد كان متلثماً بعمامته [2]، يتقدم شاقاً الصفوف ، منكسر العين ، خائفاً وجلاً؛ حتى جلس بين يدي رسول اللهﷺ وكشف لثامه، وجمع كل قوته ليطلب في انكسار عفوه.

(1) سورة التوبة الآية: ١٢٨.

(2) ذكر ذلك ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢٤/١ ، وفي العمدة (٢/١) أنه أتى رسول الله ﷺ متنكراً .

لقد دخل على رسول اللهﷺوهو في المسجد بين أصحابه [1]، وما يمنع القوم من قتله إلا جلوسه أمام من أهدر دمه، وينتظر كل منهم أدنى إشارة من رسول الله ﷺ ليقضي عليه. لقد كان وحده بينهم، لا ناصر له إلا ما يتوقعه من عفو أكرم الخلق أجمعين، " والعَفْوُ عِنْدَ رَسولِ اللَّهِ مأمولُ "، بل ذكر العلماء أن رجلاً من الأنصار وثب على كعب، وقال: يا رسول الله، دعني وعدوَّ الله أضرب عنقه، قال رسول الله ﷺ: دعه عنك، فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه [2]..

وما أن يصدر الحبيب عفوه عنه؛ إذا بصوته يرتفع قليلاً قليلاً بعريضة شعرية يقدم بها اعتذاره، ومن غير صاحبته سعاد ليبدأ الحديث عن شأنه معها. تذكر أن من يجلسون حول رسول الله ﷺ من المؤمنين عرب يألفون نمطاً معيناً من قصيدة المديح، يبدأه المادحون بالغزل؛ فالكثرة الغالبة من قصائد المديح لا تخلو مقدمتها من الإشارة إلى المرأة ثم يصفون ما يألفون من حيوان، ثم يخلصون إلى المديح بعد أن يتأكدوا من أن انفعال المستمعين قد وصل إلى درجة عالية من الإنصات [3]..

إن أهمية هذه القصيدة تكمن في درجة صدقها ، لقد كان صادقاً مع رسول الله ﷺ في إعلان توبته، كان صادقاً في تصوير ما أصابه من رعب حين أهدر دمه، وكيف عاش قلقاً يتوجس خيفة من كل شيء، كان صادقاً في مدحه، لقد كان غزله فريداً، ووصفه

---

(1) في الأغاني ١٧ / ٩٦: حدثني علي بن زيد أن كعب بن زهير أنشد رسول الله هذه القصيدة في المسجد الحرام لا في مسجد المدينة ، وانظر: مجالس ثعلب ٦٧/١ ، وذكر بعضهم أنه أنشده في مسجده بالمدينة ؛ انظر سيرة ابن هشام ٥١٤/٢.

(2) البداية والنهاية ، ابن كثير ٤٢٣/٤ عن ابن اسحق ، وفي السيرة النبوية ٦٩٩/٣ ، وأورده ابن هشام في السيرة ٥٠٢/٢، المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣ / ٦٧٤ ، وفي الشعر والشعراء ١،٢٤ وفي الأغاني ٩٤/١٧.

(3) الشعر والشعراء ٧٤/١-٧٥.

عجيباً، ومديحه صافياً ومجيداً. لقد بلغ من الروعة حداً أن رسول الله ﷺ كان يلتفت إلى من عنده من أصحابه ، ويشير إليهم أن اسمعوا،[1] وذلك في قوله :

إِنَّ الرَّسُــولَ لَــنُورٌ يُسْتَــضَاءُ بِــه ... وصَــــارِمٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْــــلُولُ
فِي عُصْــــبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُــهُمْ ... بِــبَطْنِ مَكَّــةَ لَــمَّا أَسْــلَمُوا زُولُــوا
زَالُوا فما زالَ أَنْكَاسٌ ولا كُشُــــفٌ ... يَــوْمَ الِلِّقَاءِ ولا ميلٌ مَعَــــــازِيلُ

بل بلغ إعجابه بهذه القصيدة أكثر من مجرد الإعجاب، لقد كساه بردةً. فسنَّ تقديم الجوائز للشعراء إن أجادوا..

إن رضا رسولنا الكريم بالشاعر بعد إهدار دمه موقف جدير بالوقوف عنده، ولكنه يتسق مع سماحة الدين؛ فمن أتي رسول الله ﷺ طائعا راغبا في دخول الدين، دخل في عداد المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، فالوعيد والتهديد بالقتل لم يكن مقصودا أن يتم ما توعدهم به في كل الأحوال، وكأن بينه وبينهم ثأراً لابد من الأخذ به بلا هوادة، إنه على العكس من ذلك؛ كان محاولة لابقاء الباب مفتوحا، ومنح الأمل في من توعدهم للحاق بزمرة المسلمين، بالعفو عنهم، والتجاوز عن أخطائهم، فلم يغلق في وجه مسيء باب التوبة . قال القاضي عياض[2] : " فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن النبي ﷺ كان أول الإسلام يستألف عليه الناس ، و يميل قلوبهم ، ويحبب إليهم الإيمان، ويزينه في قلوبهم، ويداريهم، و يقول لأصحابه : « إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ » و يقول : «

(1) الأغاني ٩٤/١٧ ، الشعر والشعراء ٢٤/١ ، وسيرة ابن كثير ، ودلائل النبوة . وفي الروض الأنف ٢٨١/٤: ويروى أن النبي ﷺ حين أنشده كعب (إن الرسول لنور ...) نظر إلى أصحابه كالمعجب لهم من حسن القول وجودة الشعر.

(2) الشفا بتعريف حقوق المصطفى القاضي عياض : ٢ / ٢٢٥.

يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا وَسَكِّنُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا ». و يقول : « لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ »

و كان ﷺ يداري الكفار والمنافقين ويجمل صحبتهم ويغضي عنهم ويحتمل من أذاهم و يصبر على جفائهم.. و كان يرفقهم بالعطاء و الإحسان و بذلك أمره الله تعالى فقال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] و قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[2] .

و ذلك لحاجة الناس للتألف أول الإسلام، وجمع الكلمة عليه؛ فلما استقر وأظهره الله على الدين كله قتل من قدر عليه، واشتهر أمره كفعله بابن خطل ومن عهد بقتله يوم الفتح... وكذلك نذر دم جماعة سواهم ككعب بن زهير وابن الزبعري وغيرهما ممن آذاه حتى ألقوا بأيديهم و لقوه مسلمين.."

لقد كان أزمة الشاعر بين إهدار دمه ، والعفو عنه ..

ألا توافقني أن قوله في ختام وصف محنته :

حَتّى وَضَعْتُ يميني، لا أُنازِعُهُ ... في كَفّ ذي نَقماتٍ قِيلُهُ القِيلُ

نهاية لأزمته، والخلاص من محنته .. يبدو لي ذلك ..

(1) سورة المائدة الآية: ١٣.

(2) سورة [فصلت الآية:٣٤.

المبحث الثاني

دلالة المقدمة ورمزية سعاد

لقد تبين لك أن كعباً قد بلغ به الخوف حتى كان يرتعد فزعاً، وضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، ولم يعد يراه أحد في مجلس أو منتدى. وكيف يتسنى له ذلك، وقد أهدر رسول الله ﷺ دمه.

كان الموقف حين وقف ليعتذر عن فعلته جديراً بأن يخرس الألسنة، وترتعد له الفرائص. إذا كان الأمر أمام رسول الله ﷺ فإن الأمر جلل، إن عليه أن يصل إلى تقديم اعتذاره بأقرب طريق وأفضل عبارة، عليه ألا ينشغل عن الاعتذار بأي أمر؛ فالاعتذار عادة لا يحتاج إلى تمهيد. لكن الشاعر يخيب ظنك فيمهد لاعتذاره ويتجاسر فيتغزل بصاحبته سعاد أمام رسول الله !! ولعلك تعجب معي كيف لخائف على نحو ما وصفناه به أن ينشغل ببرود في وصف صاحبته الحسناء ؟! إن لك أن تتساءل: ومن سعاد هذه حتى ليحتل الحديث عنها أكثر من مدحه لرسول الله ﷺ !!

وكأني بك تشك معي في أمر سعاد، وإني لأظنه لا يتغزل، ولا علاقة بحديثه عن سعاد بالغزل، وليس هو من قبيل ما كان يألفه الشعراء قديماً في مقدمات قصائدهم من النسيب.. ولتقرأ أول قصيدة البردة :

بَانَتْ سُعَادُ، فَقَلْبي اليَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إثرَها، لَمْ يُفْدَ، مَكْبولُ

وما سُعَادُ، غَدَاةَ البَيْنِ، إذ رَحلوا ... إلاّ أغَنُّ غضِيضُ الطَّرْفِ، مَكحول

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةٌ، عَجْزَاءُ مُدْبِرَةٌ، ... لا يشتكي قِصَرٌ مِنْهَا، ولاَ طُولُ

تجلو عوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسَمَتْ ... كأنّه مُنْهَلٌ بالرّاحِ مَعْلُول

سعاد امرأة جميلة.. هذا ما نفهمه من قول كعب بن زهير، يبدو جمالها مما في

صوتها من رنة خاصة شبهها كعب بالغنة ؛ ربما بسبب حزنها بسبب الرحيل، أو لميلها إلى الغنج في صوتها. إن جمالها يبدو أيضاً في حيائها، وكحل عينيها (غضيض الطرف مكحول)، تعجبك بجمالها الفتان إن أقبلت عليك برقة خصرها وضمور بطنها، ويعجبك مرآها إن أدبرت عنك، فهي كما يصفها: هَيْفَاءُ مُقْبِلةٌ، عَجْزَاءُ مُدْبِرَةٌ... و هي فوق ذلك معتدلة القوام: لا يشتكي قِصَرٌ مِنْهَا، ولاَ طُولُ...أما إذا ابتسمت فبان بريق أسنانها وصفاؤها العجيب.. تثيرك وتأخذ بلبك. فهل ترى الشاعر مصيباً إن قال لك إن رحيلها قد أسقمه، وذهب بعقله ، بعد أن استولى عليه حبها وقيده !!

المشكلة أن هذه الحسناء قد هجرته، ولم تبال بما يمكن أن يحدث له إن هي تركته بعد دوام محبة، أو على الأقل بعد أن تعلق قلبه بها، وأصبح متيماً بحبها. لاشك إنك تشارك الشاعر إن كان جمال صاحبته كما يزعم، إنها حينئذٍ تكون جديرة بما يحدث له إن هي تركته، ورحلت عنه غير آبهة بحاله بعدها، ولعلك لاحظت أيضاً أن ما وصفه منها هو الجمال الظاهري، جمال الشكل الخارجي: مرآها، حسن طلعتها، قوامها، بريق أسنانها... !! لا أحد يختلف مع الشاعر إن قرر إن حسناء مثلها لجديرة بحبه إن هي كانت تبادله حباً بحب، صادقة في حبها له، أو كانت تقبل على الأقل نصحه له، قد يقنعها بالعدول عن الرحيل، قد يبثها ما يكنه لها من حب، يحكي لها عن مشاعره حيالها، المهم تقبل به..

غير أن صاحبته سعاد قد تفرد بمجموعة من الصفات الخلقية، امتزجت بدمها؛ فلا تستطيع أن تتخلى عنها، إن صفة واحدة من هذه الصفات لو اتصفت بها امرأة لكانت كفيلة لأن تكون غير جديرة بأن يرضى بها أحد، قال كعب عنها:

أكرِمْ بِهَا خُلّةً، لو أَنّها صَدَقَتْ مَوْعُودَها أو لو انّ النصْحَ مَقْبُول
لَكِنّها خُلّةٌ قد سِيطَ مِنْ دَمِهَا فَجْعٌ، وَوَلْعٌ، وإخلافٌ، وَتَبْدِيل

إنها مجموعة من الرزايا الموجعة ، يكفي أنها كاذبة ، لا تفي بعهدها ، ولا تنجز ما تعد به ولا تلتزم به فهي :

وَلاَ تَمَسّكُ بالعَهد الذي زَعَمَتْ، إلاّ كما يَمسِكُ الماءَ الغَرَابِيلُ

فَلا يغُرّنْكَ مَا مَنّتْ، وما وَعَدَتْ، إنّ الأمَانيَّ والأحْلامَ تَضْلـــيلُ

وهي إن وعدت فمواعيدها كمواعيد عرقوب الذي يضرب به المثل في خلف الوعد [1]..

كانتْ مَواعِيدُ عرقوبٍ لها مَثَلاً وما مَواعِيدُها إلاّ الأباطيل

إنها متلونة، لا تستقر على حال، بل هي متقلبة الأحوال، إنها في ذلك أشبه بالغول، وتلونه بصور مختلفة حتى يخدع الناس، ويفتنهم. تزعم العرب أنه نوع من الشياطين تظهر للناس في الفلاة فتتلون لهم في صور شتى وتغولهم أي تضللهم وتهلكهم [2].

فَمَا تَدُوم على حَالٍ تَكُونُ بها، كما تَلَوّنُ في أثْوابِها الغُولُ

و مع كل هذه الصفات المنفرة، الصفات التي لا يقبل بها عرف ولا دين، يقول إنه يتمنى أن تقبل به وترضى عنه:

([1]) في الأغاني ١٧ / ٩٥ : قال أبو زيد الذي عنه كعب رجل من الأوس كان وعد رجلا أن يعطيه ثمر نخلة ... القصة، وفي نهاية الأرب في فنون الأدب١ / ٣٨١ : والعرب تضرب المثل بمواعيد عرقوب، وكان رجلا من العماليق ، وله في ذلك حكايات، وذكر منها حكايته مع أخيه . وفي جمهرة الأمثل١ / ١٠٤ : أخلف من عرقوب ، وهو رجل وعد رجلاً بثمر نخلة، ومطله، حتى إذا أدركت جاءها ليلاً فصرمها، وأخذها، فقيل: مواعيد عرقوب أي مواعيد فيها خلف .

([2]) في فتح الباري قال ابن حجر ١٠ /١٥٩: وأما الغول فقال الجمهور كانت العرب تزعم أن الغيلان في الفلوات وهي جنس من الشياطين تتراءى للناس وتتغول لهم تغولا أي تتلون تلونا فتضلهم عن الطريق فتهلكهم وقد كثر في كلامهم غالته الغول أي أهلكته أو أضلته.

أَرْجو وآمُلُ أنْ تَدْنُو مَوَدّتُها، وما إخالُ لدينا منكِ تَنْوِيلُ

إنك إن أعدت نظرك فيما وصف به كعب صاحبته سعاد، التي يقال إنه تغزل بها، لتبينت أن وصفه بعيد أن يكون غزلاً في امرأة له بها علاقة مودة، وأن سعاد نفسها لا يمكن أن تكون امرأة حقيقية. و كيف يتغزل بها وهو يهجوها هجوا مرا على النحو الذي مرَّ بك؟ و ستجد من يتفق معك إن قلت إن الشاعر قد قصد بمقدمته الغزلية أن يلتزم نهج القصيدة العربية، ويتبع خطا السابقين من الشعراء الجاهليين في افتتاح القول فيها. [1].

غير أنك قد وقفت على قصائد لم يلتزم أصحابها أن تكون مقدماتهم غزلاً، فيتبين لك أن الشاعر القديم لم يلتزم في مقدماته نمطاً محدداً، أو موضوعاً معيناً، بل منهم من لم يمهد لغرضه بشيء من التمهيد[2]، ومنهم من مهد بالغزل في قصائد الرثاء كما فعل دريد بن الصمة يرثي عبد الله أخاه:[3]

أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ لِعَاقِبَةٍ، أَمْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ ؟

غير أن المقدمات، وإن كانت غالبة في بناء القصيدة الجاهلية ؛ إلا إنها لا تعدو أن تكون لوناً من ألوان البناء، أحرى بالقبول عند متلقيه، لما فيه من التمهيد، ويصبح من حق كعب أن يبدأ بما شاء من ألوان التمهيد، ولا بأس عليه حينئذٍ أن يمهد لحديثه بالغزل،

---

(1) انظر على سبيل المثال مقدمة القصيدة العربية في صدر الإسلام : حسين عطوان : ، دار الجيل ، ط١ ، بيروت ، ١٩٨٧ ٤٨ – ٤٩ ، شوقي ضيف : العصر الإسلامي ، ص ٨٥ .

(2) انظر دراسات في الشعر الجاهلي: يوسف خليف: ص ١٢٥، وعبد الله الطيب: المرشد فهم أشعار العرب ٨٧١/٢.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١ / ١٦١ ، والقصيدة في الأصمعيات وجمهرة أشعار العرب .

لاسيما وأنه لم يكن قد أعلن إسلامه بعد، وتأليف قلبه بالتجاوز عما اعتاد الناس سماعه في مقدمات القصائد أولى، ففي انضمامه إلى زمرة المسلمين إضافة لقوة إعلامية، أو إبعاد لها عن الجانب المناوئ. و في كل الأحوال فإنه لالتزامه عرفاً سائداً لا ينبغي أن يلام، وليس من فارق حينئذٍ أن تكون المشبب بها امرأة لها في الواقع وجود زوجة أو أجنبية، أو ليس لها وجود إلا في خيال الشاعر. و إن يكن لها في الواقع وجود، وللشاعر بها صلة؛ فإن وجودها في القصيدة مرتبط بالشاعر وبهمومه، ويمهد بذكرها الشاعر إلى ما يقصد من الحديث.

قد يكون الإشكال عندك أن هذه المقدمة بهذه الصورة قيلت أمام رسول الله ﷺ خاصة، ولاشك أن مقامه يجعل التمهيد بالغزل ، ووصف حسناء ، مهما كان شأنها أو حقيقتها، من فضول الحديث، ولا يليق بجنابه العالي، بل ويترتب عليه حكم فقهي، وهو ما يستفاد من إقرار النبي ﷺ بسماع مثل هذا التغزل، كما يترتب عليه جواز التغزل بالنساء ووصف حسنهن.

غير أن ما أشكل عليك يدحضه أن رسول الله ﷺ سمع الشعر ، مع ما يحتويه من تغزل وخلافه [1] ، وتقرأ في بعض شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه الذي نظمه بعيني الرسول ﷺ وسمعه شيئاً من الغزل على نحو قوله يذكر يوم أحد : [2]

مَنَعَ النّوْمَ، بالعِشاءِ، الهمومُ ... وَخيالٌ، إذا تغورُ النّجومُ
مِنْ حبيبٍ أصابَ قلبَكَ مِنهُ ... سَقَمٌ، فهوَ داخلٌ مَكتومُ
يا لَقَوْمٍ هلْ يقتُلُ المرْءَ مِثلي ... وَاهنُ البَطشِ والعِظامِ، سَؤومُ

(1) انظر: دلائل الإعجاز ١/ ٣٢ .

(2) شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، ص ٣٢٩- ٣٤٠.

هــمُّها العِــطرُ، والفِــرَاشُ، وَيعْلــــُو هـــا لُــجَينٌ وَلُؤلُؤ مَنظُـــــــومُ
لوْ يَدِبُّ الحَــوْليُّ مِنْ ولــدِ الـــذّرِّ علـــيها، لأندبتها الكـــلـــــومُ

واقرأ مقدمة قصيدته التي يفتخر بيوم بدر ونبدأ بقوله :

تَبَلَتْ فؤادَكَ في المنامِ خَريدةٌ تسقي الضجيعَ ببارِدٍ بسامِ
كالمسكِ تخلطهُ بماءِ سحابة أوْ عاتقٍ كدمِ الذبيحِ مُدامِ

واستمع إلى الخنساء [1]، وشهرتها كانت في رثاء صخر. ولم يكن في مقدمة كعب ما يخدش الحياء ، أو يتجاوز حدود القول.

لقد كانت سعاد كما يبدو لكل من يقف على وصف كعب لها جميلة تسبي العقول؛ فحق لشاعرنا أن يهيم بجمالها الحسي، ويثيره منها غضها لبصرها حياءً، ويفتتن بابتسامتها المثيرة، مع قوام عجيب، لا تجد فيه عيباً. لكنك إن وقفت في مقدمة الشاعر عند هذا الحد، أضعت عنك صورة فتاته الحقيقية، فالشاعر يصدقك القول حين يقر بهذا الجمال الحسي، ويعلن عن افتنانه به، ولكنه يصدقك القول أيضاً فيحدثك عن حقيقة صاحبته، فلا يبقي عندك صفة ذميمة مما يمكن أن يوصف بها امرأة، حتى تضيفه لما وصف به الشاعر صاحبته سعاد، المتقلبة الأطوار، الكاذبة، التي لا تفي بما تعد به. ولك أن تقرر إن كانت سعاد هذه جديرة بأن يهيم بها أحد، بعد أن يقف من أمرها على هذه الصفات المنفرة، إنك لابد قاطع صلتك بها، ومحدث الناس بأمرها، وما نالك منها. إن كعباً في وصف أخلاق صاحبته أكد ضمناً انحيازه إلى قيم إسلامية ينبغي للمسلم أن يتحلى بها كالصدق، ويجتنب ما يقابلها كالكذب والغدر والتلون في المواقف ونحوها مما نعى على

(1) الأعلام للزركلي ٢/ ٨٦ ، والوافي بالوفيات ٣/ ٤٥٩، وفي أسد الغابة ٣/ ٣٤٢ (عن المكتبة الشاملة) : ذكروا أن رسول الله ﷺ كان يستنشدها ويعجبه شعرها، فكانت تنشده ويقول: " هيه يا خُناس " .

صاحبته الاتصاف بها.

وقد يكون الإشكال عندك، إن أنت آمنت أن الشاعر يحدثنا عن صاحبته أياً كان أمرها؛ فكيف تجد له مبرراً في أن يكون زمان حديثه عنها والسيف مسلط على رأسه، أليس على كعب حينئذٍ أن يوظف كل كلمة من قصيدته ، بل كل حرف منها لخدمة غرضه، وعتق رقبته، بعد أن أصبح على شفا حفرة من الهلاك؛ فهل يفكر من كان مثله وهو في هذا الموقف العصيب في أمر النساء، أو الغزل في واحدة منهن؟! وقد مرَّ بك وصفه لما كان يعانيه من الرعب والخوف قبل أن يضع في يدي رسول الله ﷺ يديه، وقد سمعته بنفسك، وهو يبين في أسىً وحسرة انقطاع أمله في مساعدة أقرب الناس إليه مودة، بعد أن تخلوا عن نصرته بأعذار واهية فلمن يلجأ ؟

لقد كان ما واجهه من أسباب الخوف جديراً بأن يرتعد له فيل ضخم إن واجهه ، أو أصابه ما أصابه ، وهو الذي جعله يخرج إلى البيداء خائفاً يترقب ، فما حاجته لإسماع رسول الله ﷺ عن أمر صاحبته في مثل هذا الموقف ؟!

وكيف نفسر ضرورة أن يحدث رسول الله ﷺ بصفة حسناء على هذه الصورة المنفرة في الجاهلية و الإسلام. إنه لا مخرج لك ولا لي من هذا الإشكال المنطقي إلا إذا نظرنا إلى هذه الواقعة بقراءة جديدة ، نجعل فيها صاحبته (سعاد) رمزاً لكل ما حسن مظهره، وساء مخبره [1].

أما عني فإني لأظنه يتحدث عن أصدقائه؛ فإنهم، في موقفهم من قضيته المصيرية، كانوا كذلك. لقد كانوا قبل إهدار دمه أصفياءه، كانوا أهل مودته وخالص حبه، ولكنهم

([1]) ذكر الدكتور محمد بن سعد بن حسين في كتابه " المدائح النبوية بين المعتدلين والغلاة " ط١، ١٩٨٦م ، ص: ١٩-٢٠: أن بعض شيوخه فسّروا ذلك وبيّنوه على وجه من الرمز والإشارة .

خانوه لما جاء يطلب عونهم ومساندتهم له في محنته، وتناسوا ما كان بينهم من وشائج الود، لقد جاءهم وكله أمل في نصرتهم:

أَرْجو وآمُلُ أنْ تَدْنُو مَوَدّتُها، وما إخالُ لدينا منكِ تَنْوِيلُ

فكان موقفهم منه كما يقول :

وقالَ كلّ خليلٍ كُنْتُ آمُله: لا ألهينّكَ، إنّي عنكَ مَشْغُولُ

إني لأظن، أيضاً، أن الشاعر تجلى تمكنه من فنه، فصدق رسول الله ﷺ في توبته بما استعان من رمز في، وتأكيده بأنه لا عاصم له منه إلا رجاء عفوه، وتأكيد انقطاع صلته بماضيه.

و لك أن تجعل صاحبته سعاد رمزاً لحياته قبل الإسلام، رمزاً لسعادته التي عاشها في الجاهلية، وما كان يجده من الرضا بها، بينما هي لا تعدو أن تكون زائفة ووهماً، وتبين له أنها تمتلئ بكل منقصة، فظاهر هذه الحياة يوحي بالحسن، بينما هي في حقيقتها وباطنها حياة أشبه ما تكون بالسراب الخادع، إنها حياة تجلب الشقاء والمتاعب، وسعادتها لا تدوم لصاحبها.

هذا التفسير هو ما ذهب إليه أكثر من باحث [1]، وحجتهم في ذلك أن كعباً كان شاعراً جاهلياً ، وكانت الجاهلية بكلّ أعرافها وأفكارها ملكت عليه نفسه ، حتى

(1) أذكر منهم: الدكتور عدنان علي رضا النحوي في مقال له بعنوان : (وقفة ورأي مع قصيدة كعب بن زهير البردة) "نشره في موقع رابطة أدباء الشام الإلكتروني ، وعلي أرشيد المحاسنة، في مقال له بعنوان: (الدكتور جاسر أبو صفية ، وقصيدة بانت سعاد ؛ دراسة نقدية)، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، ج ١٧، ع ٣٣، عام ١٤٢٦، ص : ٤٨٣-٥٢٤ .

ظنّ أنها هي الحق وهي التي تستحق الحبّ والولاء، ودفعه حبه لها إلى هجاء رسول الله ﷺ أعلن فيه رفضه للإسلام وتمسّكه بجاهليته ودنياه وأهوائه ونزواته، وما ورثه عن آبائه من هذه الجاهلية. لكنه حين لجأ إلى مزينة لتجيره من خطر الموت الذي يتهدّده بعد إهدار دمه، أبت عليه. وانتشر الخبر بأنه مقتول وشاع بين الناس وتخلّوا عنه، وتخلّى عنه أخوه، وشعر أنه وحيد. لقد لجأ إلى حبّه الأول: حبّ الدنيا والجاهلية، ولجأ إلى روابطها ومواثيقها وعهودها، فخذلته، وأخذت تبتعد عنه شيئاً فشيئاً، مع ما كانت تحمل من جمال لها في نفسه، هذا الجمال كلّه الذي كان يحسّه في دنيا الجاهلية لم يسعفه وهو في حالة الخطر، فنقضت الجاهليةُ عهدها، وكانت عنده أثيرة لولا نقضها لعهدها وتخليها عنه. و لكنها هي الجاهلية التي أخذ يكتشف مساوئها ومساوئ دنياها. إنها الدنيا المملوءة بالخيانة والغدر وعدم الوفاء.

ويقول عدنان النحوي: إن الشاعر كما عبر عن تعلّقه السابق بالجاهلية وحبّه لها باسم سعاد، عبّر أيضاً بالكلمة نفسها عن حبّه الجديد لله ولرسوله وللإسلام ، قال:

أمست سعادُ بأرض لا يُبلِّغها إلا العتاق النجيبات المراسيلُ

هناك أصبح حبّه ! هناك في مكان بعيد اشتدّ شوقه إليه، فلا يصلح له إلا النوق العتاق (الكريمة)، النجيبات (قوية الحركة)، المراسيل (السريعة). ويقول المحاسنة: إن سعاد التي يذكرها الشاعر في هذا البيت، ويريد أن يرحل إليها تمثل في ظنه السعادة الحقيقية التي يريد كعب الحصول عليها، وتتمثل في الحصول على عفو الرسول ﷺ ومن ثم الدخول في حياة الإسلام الرحبة الواسعة التي يجد فيها الإنسان سعادته الحقيقية.

وذكر الدكتور محمد بن سعد بن حسين أن الشاعر كنى بسعاد عن راحته وهناءته التي افتقدها زمناً طويلاً فكانت تهرب منه، وتفرّ أمامه، وتبعد عنه، فيحاول أن يركب إليها

سفائن الصحراء ... حتى وجدها أخيراً في طريق الأمل والرجاء وعرف أنها تقيم لدى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ..

و قال عبد الله الطيب [1]: " سعاد التي في أولها موصوفة صفات أنثى، وهي كناية عن حضرة الشهود، وقد بلغها رضي الله حين سر رسول الله ﷺ وخلع عليه بردته." ولم يفسر الدكتور عبد الله الطيب رحمه الله فيم كان تلونها !! أتراه قصد بأول القصيدة ما يشير إلى جمال سعاد الحسي، وأن في تلونها وإبائها إلماح إلى هوى النفس !! فإنها أمارة بالسوء، وتقف دون بلوغ صاحبها غايته، وقد تفسد عليه دينه.

المبحث الثالث

غرض القصيدة [بين الغزل والمديح]

لقد تضمنت مقدمة كعب غزلاً عرفت أمره ، ثم انتقل إلى وصف ناقته فأسهب فيه؛ وكأنه أراد أن يطرب الآذان بهذه الجزالة، ويمتع أذهانهم بالإغراب في الوصف؛ فجلساؤه تطربهم البادية ووصف ما فيها، لهم بها الخبرة والعلم والذكريات، وفيها مسارح لهوهم وانطلاقهم، ولكن الناقة هنا ليست تلك التي يعرفونها في الواقع بل هي ناقة تنتابها مشاعر الخوف والقلق والتوجس على نحو ما ينتاب الشاعر نفسه في تجربته بعد أن فقد الأمان وأصبح مطارداً كالثور الوحشي الذي أفرد عن قطيعه، لحظات مليئة بالخوف والرهبة، وطريق رحلته كما جاء في وصفه (طَامِسُ الأعْلامِ مَجْهُولُ)، طريق موحش غامض لا يهتدي فيه سالكه ، وهو وصف يتفق والحالة النفسية لكعب التي تشي

(1) عبد الله الطيب ، إلتماسة عزاء بين الشعراء ، الدار السودانية ط. ١٩٧١، ص ١٣٤.

بالرعب والخوف من المستقبل المجهول بعد أن أهدر دمه ، وفقد الأمان[1].

ولعلك لاحظت معي أبيات المديح وقد ارتفعت فجأة إلى علو باذخ، إنك أمام صرح شامخ، انتقل بنا من هامش الحديث إلى الصميم ، بلا تمهيد أو توطئة ، يدخل على قلبك بلا استئذان. جرت عادة الشعراء قديما أن يجعلوا في مقدمات شعرهم شيئاً يمهدون به لما يقصدون أن يبلغوك من رسالة.. شيوخنا كانوا يوجهون انتباهنا إلى ما وراء السطور فيما نتلقاه من حديث؛ فظاهر الكلام كثيراً ما يكون مضللاً، كانوا يقصدون أن نتعرف على ما في النص من رسالة..

كعب في مقدمته تغزل على عادة الشعراء في نسيبهم، كما كان يتغزل من كانوا قبله، هذا ظاهر شعره في المقدمة، مضمون حديثه أنه تغزل بصاحبته سعاد، لكنه وظف غزله لإيصال رسالته بصورة فنية، لقد أراد أن ينعى تصرف أصدقائه وهم يتخلون عنه في محنته عند إهدار دمه، أراد أن يصور فجيعته بأخلائه والخلص من أحبابه ، يعجبك مرآهم، ويسوؤك مخبرهم، دليله في ذلك ما عاناه في محنته، لقد عاش أيامها في ظلام حالك، ولم تنجل عنه أستار الظلام إلا لما وضع يمينه في كف رسول الله ﷺ ورضي عنه، فما الداعي إلى التمهيد لمديحه ، إنه الآن ينتقل إلى مجتمع جديد، لقد خرج من الظلمات إلى النور ..

غيره من الشعراء إذا مدحوا انتقلوا له من تشبيب، ولكن الممدوح غير معني بتشبيبهم، إنه ينتظر من الشاعر أن ينتهي من حديث نفسه إلى مديحه..

وقد نبه ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء: إن الشعراء كانوا يستهلون قصائدهم

([1]) انظر :علي المحاسنة ، (الدكتور جاسر أبو صفية ، وقصيدة بانت سعاد؛ دراسة نقدية)، ص: ٥٠٤ .

بالغزل فيشكون شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة، والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريبٌ من النفوس، ممتزج بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسببٍ، وضارباً فيه بسهمٍ، حلالٍ أو حرامٍ، ويقول إن الشاعر إذا تأكد من إصغاء الممدوح إليه والاستماع له ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكأفاة ، وهزه للعطاء، وفضله على غيره من الشعراء .[1]

وقد تذكر أن كعباً لجأ إلى هذا الفن في الخروج من المقدمة الغزلية حين قال:

يَسْعَى الوُشاةُ بجَنْبيْها وقولُهُم إنك يا بنَ أبي سلمى لمقتولُ
وقال كلُّ خليلٍ كنتُ آمُلُــــه لا ألفينكَ إني عنك مشغولُ

ويطرأ على ذهنك أن كعباً انتقل من وصف ناقته إلى تصوير محنته بعد إهدار دمه، ولم ينتقل منها إلى صميم المدح. والحق إن كعباً ما قصد نبي الله ﷺ مادحاً [2]، حتى نكلف أنفسنا بالبحث عما جاء به من أوصاف رسول الله ﷺ ونحوه مما نظن أنه غاية المديح، إنما جاءه مستعطفاً، يزيل عنه ما اتهم به، أو يخفف من شأن خطئه، ويسترضيه بما يبديه من اعتذار على ما بدر منه ويطلب عفوه. عندئذٍ لك أن تسأل عما إذا استطاع أن يبلغ مراده! ولستَ مضطراً إلى انتظار إجابتي بعد أن علمت أن رسول الله ﷺ عفى عنه وأهداه بردته، ورد من أراد الفتك به بأن كعباً جاء تائباً ، وكأني به قد أخذ في استعطافه هذا بأسلوب

(1) الشعر والشعراء: ١/ ٧٤-٧٥.

(2) المدائح النبوية، يقول زكي مبارك ، ص ٢٣ إن قصيدة كعب من قصائد المديح ، يقولها الرجل حين يرجو أو يخاف، وليست من المدائح النبوية في شيء ،ويقول في صفحة ٢٥ : إنها قصيدة جاهلية.. وإن الشاعر لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت..

النابغة الذبياني وما جاء في اعتذارياته المشهورة للنعمان، من نحو قوله لما جاءه وعيده :

وَعيدُ أَبي قابوسَ في غَيرِ كُنهِهِ فَبِتُّ أَتاني وَدوني راكِسٌ فَالضَواجِعُ مِنَ
كَأَنّي ساوَرَتني ضَئيلَةٌ الرُقشِ في أَنيابِها السُمُّ ناقِعُ تُطَلِّقُهُ
تَناذَرَها الراقونَ مِن سوءِ سُمِّها طَورًا وَطَورًا تُراجِعُ
أَتاني أَبَيتَ اللَعنَ أَنَّكَ لُمتَني وَتِلكَ الَّتي تَستَكُّ مِنها المَسامِعُ
مَقالَةُ أَن قَد قُلتَ سَوفَ أَنالُ وَذَلِكَ مِن تِلقاءِ مِثلِكَ رائِعُ
حَلَفتُ فَلَم أَترُك لِنَفسِكَ ريبَةً وَهَل يَأثَمَن ذو أُمَّةٍ وَهوَ طائِعُ
لَكَلَّفتَني ذَنبَ اِمرِئٍ وَتَرَكتَهُ كَذي العُرِّ يُكوى غَيرُهُ وَهوَ راتِعُ
فَإِنَّكَ كَاللَيلِ الَّذي هُوَ مُدرِكي وَإِن خِلتُ أَنَّ المُنتَأى عَنكَ واسِعُ

و يقول كعب دافعاً عن نفسه ما اتهم به:

لا تأخُذَنّي بأقْوَالِ الوُشاةِ، وَلَم أُذْنِبْ، وإن كَثُرَتْ فِيّ الأقَاوِيلُ

وكان ما كان من تصوير فزعه وخوفه حتى بلغ قوله يصف هيبة رسول الله ﷺ حين يخاطبه بسطوة الأسد الخادر وشدة بأسه:

وَلَهُوَ أهيبُ عِنْدي إذ أُكلّمُه وَقِيلَ: إنّك مَنْسُوبٌ وَمَسْؤول ببطنِ عثَّرَ،
من ضَيْغمٍ من ضِرَاءِ الأسُد مَخدَرُهُ غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ
يَغْدو، فَيَلحَمُ ضِرْغامَيْنِ، عيشهما لَحْمٌ مِنَ القَوْمِ مَعفور، خَرَاذيل
إذا يُساورُ قِرْناً لا يَحِلُّ لَهُ أن يتْرُكَ القِرْنَ إلاّ وَهُوَ مَفلول
مِنْهُ تَظَلّ حَميرُ الوَحشِ ضَامِزَةً ولاَ تُمَشَّى بِواديهِ الأراجِيل
وَلاَ يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخو ثِقَةٍ مُطرَّحُ اللحمِ، والدِّرْسانِ، مأكول

وكيف يكون المدح إن لم يكن مثل هذا التصوير الرائع! إن هذا التصوير لما حاق به هو لب المديح، إن فيه بياناً لسطوة الممدوح وسلطانه العظيم، إن فيه بياناً لمكانة الرسول الكريم وهيبته، وأنه مغلوب على أمره إن لم يتداركه عفوه ورضاه. فإذا بلغ غايته من الاعتذار والاستعطاف مرة بوصف حاله بعد إهدار دمه، ومرة ببيان سطوة رسول الله ﷺ وشدة بأسه؛ ارتفع صوته فجأة، فقد جمع كل قوته، وهو يقرر حقيقة ثابتة لاشك فيها، ورأيت هذا التأكيد التقريري الحاسم يندفع أمام سمعك: إن الرسول لنور..

قال علماء البلاغة إنك إن أردت أن تخاطب من ينكر عليك ما تقوله تضطر إلى أن تؤكد له كلامك حتى يقتنع، وقد تلجأ إلى القسم. فما الذي دعا كعباً لتأكيد كلامه؟ لا أظن أن أحداً ممن كان حول رسول الله ﷺ كان منكراً أو متردداً، أغلب الظن أنه أراد أن يؤكد ليضع نور رسول الله مقابل قوة السيف، ففي النور الرحمة، يشع فيدخل القلوب بلطف وينير ظلامها، ويثبت إيمانها، وفي سيف الله القوة الطاغية، ألم يأت في وصفه ووصف صحابته قول ربنا عز شأنه: (أشداء على الكفار رحماء بينهم).. وهكذا كان وصف كعب لصحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين ووصف هجرتهم التزاماً بأمر الله لهم بالتخلي عن كل ما يملكون لنصرة دينه؛ لا فراراً عن جبن وتخاذل، بل هم فرسان يحسنون لقاء العدو بما أعدوا له من العدة والعتاد وما أحسنوا من الفروسية والطعن والضرب، أعزاء (شم العرانين)، يمشون مشي الجمال الزهر اختيالاً وإقداماً جسوراً على أعدائهم في تهليل وتكبير، فلا يقع الطعن إلا في نحورهم، إذ لا يعرفون معنى للتخاذل أو الفرار. ومع ذلك لا يقبلون على أعدائهم تشفياً؛ فيفرحون بما يصيبهم منهم، ولكنهم في الوقت نفسه لا تجد منهم من يبدي الجزع إذا أصابهم العدو بشيء..

ألا تجد أنه من الأفضل لنا أن نسمعه وهو يمدح، قال:

إنّ الرَسولَ لَسَيفٌ يُسْتَضاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ من سيوف اللهِ مَسْلولُ
في عُصبةٍ من قريشٍ قال قائلُهُمْ ... ببطْنِ مكّةَ لّما أسْلَموا زولُوا
زالوا فما زالَ أنْكاسٌ ولا كُشُفٌ ... عند اللّقاءِ ولا مِيلٌ مَعازيلُ
شُمُّ العَرانينِ أبْطالٌ لَبوسُهُمُ ... من نَسْجِ داودَ في الهَيْجا سَرابيل
بِيضٌ سَوابغُ قد شُكَّتْ لها حَلَقٌ ... كأنّها حَلَقُ القَفْعاءِ مَجْدولُ
يَمْشونَ مَشْيَ الجِمالِ الزُّهْرِ ... يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التَّنابيلُ
لا يَفْرَحونَ إذا نالَتْ رِماحُهُمُ ... قوماً ولَيْسوا مَجازيعاً إذا نِيلُوا
لا يَقَعُ الطَّعْنُ إلاّ في نُحورِهِمُ ... ما إنْ لَهُم عن حِياضِ الموتِ تَهْليل

المبحث الرابع

موقف النبي ﷺ من القصيدة.

إن الذين وقفوا على غزل كعب في مقدمة قصيدته هالهم أن ينشد أحد بين يدي رسول الله ﷺ مثل هذا التشبيب بامرأة، فإن سماعه له إقرار منه للشعراء على التشبيب والغزل والوصف للنساء، وعند بعضهم أن ذلك مما لا يجوز القول به لعدم قيام الدليل الصحيح على هذا الإقرار. إن قولهم هذا جدير بالنظر، ولكن اتخاذ موقف حياله يستدعي استحضار موقف الإسلام من الشعر بعامة وإقراره له، وتوظيفه في معركة الدعوة سلاحاً له شأنه، في مجتمع يمثل الشعر فيه مكانة عالية. ونبي عربي يتقن لغة قومه ويحذق مقاصد القول عندهم. ودين يبشر بالعفو عن المسيء إن تاب، ويدعو المسرفين على أنفسهم أن لا يقنطوا من رحمة الله في غفرانه. وجهلوا أن التجاوز عن مثل هذا التشبيب، وإن جاء على ما عهده الشعراء من قبل، حكمة، إنها نوع من

السماحة الدينية وتأليف لقلوب آبت إلى حظيرة الدين، واستمالة لشاعر له مكانته، ويرجى نفعه .

الشعر ديوان العرب [1]: قول ينسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما، كان يقول: إذا أشكل عليكم شيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشعر فإنه ديوان العرب. وكان يُسأل عن القرآن فينشد الشعر. وقيل إنه بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أنْ عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم . فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بين أستار الكعبة [2]. ولا بأس إن صدقنا أمر تعليقه في أستار الكعبة، إذ ينبئ ذلك إلى تقديس القوم له، وكيف لا يقدمونه وهو خزانة حكمتهم، ومستنبط آدابهم، ومستودع علومهم.. كانوا كما جاء في العمدة [3] إذا نبغ في القبيلة شاعر هنأتها القبائل، وصنعت الأطعمة، وأعلنت الأفراح لأنه حماية لأعراضهم وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج. بل كان الشعر كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب-رضي الله عنه: علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه [4].

وبلغ من حرص القبيلة على رواية شعرها أنها كانت تعلِّم صغارها الشعر وحفظ أشعار القبيلة خاصة، كما كانت تفعل تغلب في تحفيظ أبنائها معلقة عمرو بن كلثوم، وكثرة ترددها لها، وكأن ليس لها شعر سواها ، حتى هجوا بذلك؛ قال بعض

(1) البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٩٢، المزهر للسيوطي ٢ / ٢٦١، العمدة لابن رشيق ١ / ٤

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١/ ٩٦ ، . العقد الفريد ٥ /٢٦٩

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١/ ٤٩

(4) طبقات فحول الشعراء: ص ٢٢.

شعراء بكر بن وائل[1]:

أَلْهَى بني تَغْلِبٍ عَنْ كلّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدَةٌ قالها عمروُ بن كُلْثُومِ

يُفاخِرُونَ بها مُذْ كان أَوَّلُهُمْ يا لَلرِّجالِ لِفَخْرٍ غَيْرِ مَسْؤُومِ

و جاء الإسلام وللشعر كل هذه المكانة، وما كان له أن يدع وسيلة إعلامية لها خطرها ومكانتها في قلوب القوم؛ بل كان من المناسب أن يوظفها ويوجهها لخدمة الدعوة، وهذا ما حدث. وما أكثر الدلائل التي تؤكد أنه جعل من الشعر جهاداً كجهاد السلاح، حتى إن رسول الله ﷺ يدعو الشعراء لنظم الشعر، ويستمع إلي الشعراء، ويجيزهم ويمنحهم الجوائز، وفي الحديث عن جابر بن سَمُرَة قال: شهدت النبي ﷺ أكثر من مائة مرة في المسجد، وأصحابه يتذاكرون الشعر، وأشياء من أمر الجاهلية؛ فربما تبسم.[2] وعن أُبَيَّ بن كعب، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إِنَّ من الشعر حكمةً »[3]

وتقرأ في كتب السنة وصفاً لرسول الله ﷺ والشعراء يدخلون عليه واحداً إثر واحد، يصفونه وهو مشغول باستعراض سلاح الكلمة، واختيار قائد مناسب لهذه الفرقة العسكرية. و تبدأ المعاينة الدقيقة لاختيار من يحمل راية الشعر. حسان بن ثابت هو الذي يفوز بهذا المقام السامي والرتبة العالية. ويأتيه الأمر النبوي واضحاً: (اهجهم)[4].

جاء في صحيح مسلم- عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: اهجوا قريشاً؛ فإنه أشدُّ عليها من رشقٍ بالنبْل، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهْجُهُمْ، فهجاهم،

(1) الشعر والشعراء ١ /٤٣، الأغاني: ١١/ ٥٤.

(2) مسند أحمد ٣٤/ ٤٣٦، ح رقم ٢٠٨٥٣ .

(3) رواه البخاري.

(4) متفق عليه

فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه. ثم أدلع لسانه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم. فقال رسول اللهﷺ: لا تعجَل، فإنَّ أبا بكر أعلم قريشٍ بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً، حتى يلخِّص لك نسبي. فأتاه حسان، ثم رجع. فقال يا رسول الله: قَدْ لَخَّصَ لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسُلَّنك منهم كما تسل الشعرة من العجين. قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان : إنَّ روحَ الْقُدُس لا يزالُ يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله. وقالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: هجاهم حسان فشفى واشتفى [1].

- وعن البراء بن عازب ﷺ أن النبي ﷺ قال لحسان : « اهْجُهُمْ أو قال هاجهمْ وجبريل معك »[2]

ويفهم من هذا الأمر أنه جعل من هجاء الكفار جهاداً ، ورأى أن أثره في إيذائهم أبلغ من رشق النبال ، واختار من بين شعراء المسلمين أشدهم أثراً في الإيذاء ، وهو حسان رضي الله عنه . كما أنه نص على أن الشعر ضرب من الجهاد؛ وذلك في الحديث الذي رواه كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل فيما تقولون لهم من الشعر.[3] وجاء في تهذيب الآثار للطبري أن رسول الله ﷺ قال: « إذا القوم نصروا النبي بأيديهم وأسلحتهم، فبألسنتهم أحق أن ينصروه »

([1]) صحيح مسلم ٧/ ١٦٤ ، باب فضائل حسان بن ثابت ، ح رقم ٦٥٥٠.

(2) البخاري ومسلم .

([3]) مسند الأمام أحمد.

وكان حسان وعبد الله بن رواحة وغيرهما يمدحونه، ويسمع منهم ويصغي إليهم، ويأمرهم بالرد على المشركين فيقولون في ذلك، ويعرضون عليه.

لم يبدأ هو معركة الكلمة ، لقد بدأها المشركون، ولابد من المواجهة في هذه الساحة . لمكانة الشعر في الإسلام حرَّض رسول الله ﷺ على الانتظام في سلاح الشعر، قال : (إن القوم الذين نصروا بأيديهم أحق أن ينصروا بألسنتهم) [1]

لما جاء وفد بني تميم استدعى الرسول ﷺ حسان بن ثابت ليرد على شاعرهم الزبرقان بن بدر، وقال له: قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال، فقام حسان، فقال قصيدته التي مطلعها:

إِنَّ الذَّوائِبَ من فِهْرٍ وإِخْوَتِهِمْ قد بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبعُ [2]

وإذا بحثت عما ذكر في القرآن الكريم من إشارات إلى الشعر والشعراء، تلاحظ أن الآيات ليس فيها إدانة للشعراء جميعاً، وذلك أنها استثنت المؤمنين الصالحين، ولم يصدر حكما بعينه على الشعر، وإنما نفى عن النبي أن يكون قد تعلم الشعر، أي أن يكون شاعرا، وإنما هو رسول يجيء بشيء غير الشعر ، ولغرض آخر غير ما يجيء الشعر من أجله، فمن المعروف كما يقول الدكتور عبد القادر القط [3] أن العرب كانوا يظنون بعقول الشعراء الظنون، فيعتقدون أن بهم ما يشبه الجنون، أو أن بعض الشياطين يوحون إليهم بما يجري على ألسنتهم من شعر؛ ولو لصقت صفة الشاعر بالرسول

([1]) فتح الباري – ابن حجر ١٠/٥٤٧.

([2]) شرح ديوان حسان بت ثابت للبرقوقي ط دار الكتاب العربي ، ١٩٩٠، ص ٢٩٦ وما بعدها ، صبح الأعشى ١/ ٤٢٨.

([3]) في الشعر الإسلامي والأموي (دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٧) ص ١١.

لكانت جديرة بأن تناقض معنى الرسالة والوحي. كذلك نفت الآيات عن القرآن الكريم أن يكون شعراً قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[1].

وجاء في تفسير ابن كثير: لما نزلت هذه الآية قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [2]، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رَوَاحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم يبكون، فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فتلا النبي ﷺ : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: "أنتم"، ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: "أنتم"، ﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال: "أنتم".[3]

إذن فإن الشعراء الذين يلتزمون بقيم المجتمع الإسلامي وضوابطه ، ولا يتعدون حدودها، فلا تثريب عليهم، ولا انتقاص من قيمتهم ومنزلتهم .

أما قول رسول الله ﷺ : « لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا حتَّى يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا ». فقد أورده البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ في باب ما يُكرَه أن يكون الغالب على الإنسان الشعرُ، حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن؛ فدل بذلك أن المذموم ههنا امتلاء النفس والمشاعر بالشعر، حتى يكون الشعر هو الشغل الشاغل للإنسان حتى يصرفه عن واجباته المهمة، قال النووي [4]: المراد أن يكون الشعر غالبا عليه مستوليا عليه بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله

(1) سورة يّس الآية:٦٩.

(2) سورة الشعراء الآية: ٢٢٤.

(3) تفسير ابن كثير : (تفسير سورة الشعراء : ٢٢٤-٢٢٧) ٦/ ١٧٥ ، وانظر تفسير الطبري ١٩/ ٤١٩ .

(4) كتاب الشعر ، شرح النووي على مسلم ، برقم ٢٢٥٧ ، ١٥/ ١٤.

تعالى..أو كما يقول ابن رشيق:[1] "...فإنما هو من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن.

وفي صحيح مسلم وردت المناسبة التي قيل فيها الحديث: فعن أبى سعيد الخدري قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ : " خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان؛ لأن يمتلئ جوفُ رجلٍ قيحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً)).

فمن الواضح أن هذا الشاعر قد سلك سلوكاً غير مهذب، فاعترض طريقهم يهجو؛ فأشار النبي ﷺ بأخذه والإمساك به .

خاتمة

إن من يقف على قصيدة (بانت سعاد)، ويعرف مناسبتها، وأنها ألقيت بين يدي رسول الله ﷺ يشكل عليه أن ينصرف الشاعر عن غرضه في الاعتذار والمديح بما جاء في مقدمة قصيدته من تشبيب بصاحبته سعاد ، كما يشكل عليه أن لا يقتصر في وصف صاحبته بجمال المظهر، بل يدهشك بما ينعتها به من سوء المخبر، حتى لتتساءل، وأنت محق في ذلك، كيف يجوز لرجل أن يعشق امرأة تنطبق عليها تلك الصفات السيئة في الجاهلية والإسلام، ولك أن تتساءل: وما شأن نبينا الكريم بهذا التشبيب أصلاً، أو بواحدة تلك صفتها ، وقد ينتابك شيء من الغضب وأنت ترى الشاعر منشغلاً بصاحبته ووصف أحوالها دون أن يراعي مقام رسولنا الكريم وجنابه العالي ، وما ينبغي للناس من آداب في مخاطبته، ولك أن تتذكر الظرف النفسي الذي ألقى فيه كعب قصيدته، وما كان يعانيه

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه - (١/١٧).

من رعب شديد بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه، وتخلى عنه الناس جميعاً، وتخلى عنه أخوه بجير، لقد كان قبل أن يلقي قصيدته يعيش منفرداً، خائفاً يترقب، لا يأمن حتى أقرب الناس إليه. لقد كان أمر رسول الله بقتله واضحاً لا لبس فيه، بل أوشك أحدهم أن يتقرب إلى الله تعالى بتنفيذ ما أمر به رسول الله في مجلس رسول الله، وهو يلقي قصيدته.

إن ما ذكرناه من إشكال المقدمة الغزلية كان، كما ذكرنا، هاجساً للعلماء لاستيعاب هذه المقدمة، وفهم مراد الشاعر في تغزله على النحو الذي جاء به في وصف سعاد ، أو تبرير تصرفه في التمهيد لطلب عفو رسول الله بالتشبيب دون مراعاة لمقامه السامي، ومكانته في قلوب المؤمنين. وليس من إشارة عند من أوردوا خبر إلقائه للقصيدة بين يدي رسول الله ﷺ عن موقف لرسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام مما ورد في المقدمة، أو اعتراض من الصحابة رضوان الله عليهم على محتوى المقدمة، وليس من خبر عن إنكار علماء المسلمين الأوائل لما جاء في وصف سعاد .

ليس لنا حيال هذا الموقف إلا أحد أمرين؛ أولهما أن نقر أولئك الذين قالوا إن المقدمة جاءت تقليداً من قبيل ما كان يألفه الشعراء قديماً في مقدمات قصائدهم من النسيب. وعندئذ يتوجب علينا أن نأخذ بما في الخبر من الدلالة على إقرار النبي ﷺ الشعراء على التشبيب والغزل والوصف للنساء، وأنه لا بأس بإنشاد الشعر في المسجد، وقد يدعونا ذلك أن نأخذ بما وضعه بعض العلماء من قيود على إنشاد الشعر في المسجد بألا يكون فاحشا مكشوفا أو معينا، أو كان في مدح الدين وإقامة الشرع، أو لم يرفع به الشاعر صوته بحيث يشوش بذلك على مصل أو قارئ أو منتظر للصلاة، فإن أدى إلى ذلك كره .

جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية [1] أن تشبب الشاعر بزوجته أو جاريته جائز ما لم يصف أعضاءها الباطنة، أو يذكر ما من حقه الإخفاء؛ فإنه يسقط مروءته، ويكون حراما أو مكروها، على خلاف في ذلك .

و كذا يجوز التشبيب بامرأة غير معينة، ما لم يقل فحشا أو ينصب قرينة تدل على التعيين؛ لأن الغرض من ذلك هو تحسين الكلام وترقيقه لا تحقيق المذكور، فإن نصب قرينة تدل على التعيين فهو في حكم التعيين. وليس ذكر اسم امرأة مجهولة كليلى وسعاد تعيينا، لحديث: كعب بن زهير: وإنشاده قصيدته المشهورة " بانت سعاد " بين يدي الرسول ﷺ ".

أما الأمر الثاني فيذهب إلى ما في ذكر الصاحبة في قصيدة كعب من رمزية، وبه رأينا أن الشاعر كنى باسم سعاد عن موقف أصحابه تعريضاً حين تخلوا عنه في محنته، وأنه لا ينجيه إلا انتماؤه لزمرة المؤمنين، وعندئذٍ يتبين لك إجادة الشاعر في توظيف أجزاء المقدمة على النحو الذي مر بك لخدمة غرضه من الاعتذار والمديح، إنها بهذا الشكل أتاح للشاعر أن يكون له وجود حقيقي في متن قصيدته، وهو يصور موقفه من حال أخلائه مما يتنافى مع قيم الإسلام ودعوته، لقد أجاد في عرض تفاصيل محنته في طريقه لنور الحق وتقديم اعتذاره وإعلان توبته عما بدر منه. أما المديح الصافي فقد كان كما أراد صاحبه جامعاً لخصال القوة والشجاعة، بين سطوع النور المبين، والسيف القاهر للأعداء، ومرتبطاً غاية الارتباط بمقدمته.

---

[1] الموسوعة الفقهية الكويتية ج١٢/ ص ١٤ (عن المكتبة الشاملة).